﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٩﴾ [الأنفال: 67 - 69]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

رِفْقُ القرآنِ بالمؤمنين بعد غزوةِ بدرٍ مظهرٌ من مظاهرِ تشريعاتِه ورحمتِه

أوضحَ صاحبُ تفسيرِ (التَّحريرِ والتَّنوير) خيرَ إيضاحٍ صلةَ هذهِ الآياتِ بما تقدَّمَها من النّاحيتَيْن: السّياقيَّةِ، والمقاميَّةِ، فقال: "اسْتِئْنافٌ ابْتِدائيٌّ مُناسِبٌ لِما قَبْلَهُ سَواءٌ نَزَلَ بعَقِبه أم تَأخَّرَ نُزولُهُ عنه، فكانَ مَوْقِعُهُ هُنا بسَبَبِ موالاةِ نُزولِه لِنُزولِ ما قبلَهُ، أو كانَ وضْعُ الآيَةِ هُنا بتَوْقيفٍ خاصٍّ، والمُناسَبَةُ ذِكْرُ بَعْضِ أحْكامِ الجِهادِ، وكانَ أعْظَمُ جِهادٍ مَضَى: هو جِهادُ يَوْمِ بَدْرٍ، فلا جَرَمَ نَزَلَتْ هذه الآيَةُ بَعْدَ قَضيَّةِ فِداءِ أسْرَى بَدْرٍ مُشيرَةً إلَيْها. وعِنْدي أنَّ هذا تَشْريعٌ مُسْتَقْبَلٌ أخَّرَهُ اللّه تعالى رِفْقًا بالمُسْلِمينَ الَّذينَ انْتَصَروا ببَدْرٍ، وإكْرامًا لهم على ذلك النَّصْرِ المُبينِ، وسَدًّا لِخَلَّتِهِمُ الَّتي كانوا فيها، فنَزَلَتْ لِبَيانِ الأمْرِ الأجْدَرِ فيما جَرَى في شَأْنِ الأسْرَى في وقْعَةِ بَدْرٍ"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَسۡرَىٰ﴾: الأسرُ: الشَّدُّ بالقيْدِ من قولهم: أسَرْتُ القَتَبَ، وسمّي الأسيرُ بذلك، ثمَّ قيل لكلِّ مأخوذٍ ومقيَّدٍ؛ وإن لم يكن مشدودًا[2]، وأُسْرةُ الرَّجلِ: مَن يتقوَّى بهِ، والأُسْرُ: احتباسُ البولِ، كالحصْرِ في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/72.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 17.

احتباسِ الغائطِ لما في ذلك من الشِّدَّة القويَّةِ، ويُجمعُ الأسيرُ على أُسارَى وأسارى؛ ضمًّا وفتحًا، وأسرى، والمشهورُ أنَّه لا فرقَ[1].

2) ﴿يُثْخِنَ﴾: يقولُ ابنُ فارس: "الثّاءُ والخاء والنّونُ يدلُّ على رزانةِ الشَّيءِ في ثقلٍ، تقول: ثَخُنَ الشَّيءُ ثخانةً، والرَّجلُ الحليمُ الرَّزينُ ثخينٌ[2]"، ومنه استعيرَ أثخنتُهُ ضربًا واستخفافًا[3]، "ومن المجازِ: أثخنَتْهُ الجراحاتُ، وتركه مثخنًا وقيدًا، وأثخنَ في العدوِّ: بالغَ في قتلهم وغلَّظَ، وأثخنَ في الأرضِ: أكثرَ القتلَ، وأثخنَ في الأمرِ: بالغَ فيهِ، وأثخنتُهُ معرفةً، ورصنتهُ معرفةً؛ إذا قتلتهُ علمًا، وأثخنَهُ قولُهُ: بلغَ منهُ، وامرأةٌ مثخنةٌ: ضخمةٌ، واستثخنَ منّي الإعياءُ، والمرضُ: غلباني، واستثخنَ منّي النَّومُ: غلبني، وفلانٌ رزينٌ ثخينُ الحلمِ، وهو أعزلُ ثخينٌ، ومؤذٍ ثخينٌ[4]"، ولم ترد هذهِ الكلمةُ إلّا في موضعيْنِ من القرآنِ الكريمِ ارتبطا بالقتالِ، هذا الموضعُ، والموضعُ الآخرُ في سورةِ محمد ﷺ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ [محمد ﷺ: 4]، والمقصودُ في الآيةِ: هو المبالغةُ في القتلِ، الذي يلحقُهُ التَّمكُّنُ في الأرضِ.

3) ﴿عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾: خُصَّ العُرْضُ بالجانبِ، وأعْرَضَ الشَّيءُ: بدا عُرْضُهُ، وعَرَضْتُ العودَ على الإناءِ، واعْتَرَضَ الشَّيءُ في حلقهِ: وقفَ فيهِ بالعَرْضِ، واعْتَرَضَ الفرسُ في مشيهِ، وفيه عُرْضيَّةٌ، أي: اعْتِراضٌ في مشيهِ من الصُّعوبةِ، وعَرَضْتُ الشَّيءَ على البيعِ، وعلى فلانٍ، ولفلانٍ، والعَرَضُ: ما لا يكونُ له ثباتٌ، ومنهُ استعارَ المتكلِّمون العَرَضَ لما لا ثباتَ لَهُ إلّا بالجوهرِ كاللَّونِ والطَّعمِ، وقيل: الدُّنيا عَرَضٌ حاضرٌ، تنبيهًا أن لا ثبات لها[5]، فالدُّنيا عرضٌ لتغيُّرِ أحوالها، ولكثرةِ خصائصِها الذّاتيَّةِ والعارضة الَّتي تحتاج إلى المتعلِّقين بها والباحثين عنها حتَّى تحلَّ في ذواتِهم وخواطرِهم.

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/89.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ص: 181.
(3) الرّاغب، المفردات: (ثخن).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة، ص: 70.
(5) الرّاغب، المفردات: (عرض).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأحـــــداثُ العظيمةُ تربّي الأمّـةَ العظيمةَ وحادثةُ الأسرى بـــــابٌ مـن أبـوابِ التَّربيـةِ الحضاريَّةِ

تُبيِّنُ الآياتُ أنَّه ما استقام لنبيٍّ من الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام أنْ يَكونَ لَهُ أسْرى من أعدائِهِ الذين يريدون به وبدعوته شرًّا، حتى يبالغَ في قتلِهم، وإنزالِهِ الضَّرباتِ الشَّديدةَ عليهم إذلالًا للكفرِ وإعزازًا لدين الله، تريدون - أيُّها المؤمنون - بأخْذِكم الفداءَ من أعدائِكم الأسرى عرضَ الدُّنيا ومتاعَها الزّائِلَ، وحطامَها الَّذي لا ثباتَ لَهُ، والله تعالى يريدُ لكم ثوابَ الآخرةِ، والله تعالى عَزيزٌ لا يُغالب، بل هو الغالبُ على أمرِهِ، حَكيمٌ في كلِّ ما يأمرُ بِهِ، أو ينهى عنهُ.

ولولا حكمٌ مِنَ الله تعالى سبقَ منهُ في الأزلِ ألّا يعذِّبَ المخطئَ على اجتهادِهِ، أو ألّا يعذِّبَ قومًا قبل تقديمِ البيانِ إليهم، ولولا كلُّ ذلك لأصابَكم بسببِ ما أخذْتُم مِنَ الفداءِ قبل أن تؤمروا بِهِ عَذابٌ عَظيمٌ لا يُقادرُ قدرهُ في شدَّتِه وألمِه، ولقد عفوتُ عنكم - أيُّها المؤمنون - فيما وقعتُم فيهِ من تفضيلِكم أخْذَ الفداءِ من الأسرى على قتلِهم، وأبحْتُ لكم الانتفاعَ بالغنائِم، فكلوا ممّا غنمتُم من أعدائِكم حلالًا لذيذًا هنيئًا لا شبهةَ في أكلِهِ ولا ضررَ، واتَّقوا الله في كلِّ أحوالِكم بأن تخشوهُ، وتراقبوهُ، ولذا غفرَ لكم ما فرطَ منكم، وأباحَ لكم ما أخذتموهُ من فداءٍ، وتابَ عليكم توبةً صادقةً[1].

وقد جاء في سببِ نزولِها: ما رواهُ الإمامُ مسلمٌ عن عمرَ بنِ الخطّاب، قال: "فَلَمّا أسَروا الأُسارَى؛ قالَ رَسولُ الله ﷺ لِأبي بَكْرٍ وعُمَرَ: «ما تَرَوْنَ في هَؤُلاءِ الأُسارَى»؟ فقالَ أبو بَكْرٍ: يا نَبيَّ الله! هُم بَنو العَمِّ والعَشيرَةِ، أرَى أنْ تَأْخُذَ منهم فِدْيَةً، فتَكونُ لَنا قوَّةً على الكُفّارِ، فعَسَى الله أنْ يَهْدِيَهُم لِلْإسْلامِ، فقالَ رَسولُ الله ﷺ: «ما تَرَى يا ابنَ الخَطّابِ»؟ قُلْتُ: لا، والله! ما أرَى الَّذي رَأى

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/157 - 160.

أبو بَكْرٍ، ولَكِنّي أرَى أنْ تُمَكِّنّا، فنَضْرِبَ أعْناقَهُم، فتُمَكِّنَ عَليًّا مِن عَقيلٍ، فيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وتُمَكِّنّي مِن فُلانٍ (نَسيبًا لِعُمَرَ)، فأضْرِبَ عُنُقَهُ، فإنَّ هَؤُلاءِ أئِمَّةُ الكُفْرِ وصَناديدُها. فهَوِيَ رَسولُ اللّه ﷺ ما قالَ أبو بَكْرٍ، ولَم يَهْوَ ما قُلْتُ، فلَمّا كانَ مِنَ الغَدِ جِئْتُ، فإذا رَسولُ اللّه ﷺ وأبو بَكْرٍ قاعِدَيْنِ يَبْكيانِ، قُلْتُ: يا رَسولَ اللّه! أخْبِرْني مِن أيِّ شَيْءٍ تَبْكي أنْتَ وصاحِبُكَ، فإنْ وجَدْتُ بُكاءً؛ بَكَيْتُ، وإنْ لَم أجِدْ بُكاءً تَباكَيْتُ لِبُكائِكُما، فقالَ رَسولُ اللّه ﷺ: «أبْكي لِلَّذي عَرَضَ عَلَيَّ أصْحابُكَ مِن أخْذِهمُ الفِداءَ، لَقد عُرِضَ عَلَيَّ عَذابُهُم أدْنَى مِن هذه الشَّجَرَةِ» - شَجَرَةٍ قَريبَةٍ مِن نَبيِّ اللّه ﷺ - وأنْزَلَ اللّه ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾ فأحَلَّ اللّه الغنيمةَ لهم"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ الفصلِ:

حـكـمُ الأسـرِ تختلفُ أحكامُهُ باختلافِ أحوالِهِ

قولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ استئنافٌ نحويٌّ جديد يتعلَّقُ بقضيَّةٍ أخرى من قضايا غزوةِ بدرٍ، يدورُ حولَ حكمِ اتِّخاذ الأسرى، وما جرى في ذاك من أحداثٍ، وقد جاءتْ تفصيلاتُ تلك الحادثةِ في كتبِ السّيرةِ والحديثِ، والاستئنافُ لبيانِ الأسرِ وحكمِهِ في الإسلامِ بحسبِ أحوالِه.

نكتةُ استعمالِ أداةِ ﴿مَا﴾:

إفـادةُ عـمـومِ النَّـفـي في أعـمِّ أحـوالِ الأسـرِ قبلَ الإثخانِ

أداةُ ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ حرفُ نفيٍ، واستُعمل دونَ غيرِه من أدواتِ النَّفي؛ لبيانِ العموم، وليقوى دخولُهُ على ﴿كَانَ﴾، فيزيدُهُ عمومًا، وهذا من نفي أعمِّ أحوالِ الأسرِ إلّا حالَ الإثخانِ في الأرضِ، وقد دلَّ هذا النَّفيُ سواء

(1) مسلم، الصّحيح، كتاب: الجهاد والسّير، باب: الإمدادِ بالملائِكةِ في غزوةِ بدر، وإباحةِ الغنائِمِ، رقم: (1763).

أكان داخلًا على جملة اسميَّةٍ أم فعليَّةٍ على معنى: أنَّهُ لا يصحُّ أن يكونَ هذا الأمرُ، ولا يتصوَّرُ حصولُهُ بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ.

بلاغةُ استعمالِ ﴿كَانَ﴾:

توجيهُ احتمالِ (كان) لأن تكونَ ناقصةً أو تامَّةً

يحتمل أن تكونَ ﴿كَانَ﴾ ناقصةً، واسمُها المصدرُ المؤوَّلُ ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾، وخبرُها مقدَّمٌ عليهِ، وهو ﴿لِنَبِيٍّ﴾، ويحتملُ أن تكونَ تامَّةً، بمعنى: ما صحَّ أو ما استقام، ويكونُ المصدرُ المؤوَّلُ ﴿أَن يَكُونَ﴾، واسمها المؤخَّرُ ﴿أَسۡرَىٰ﴾، وخبرُها المقدَّمُ ﴿لَهُۥٓ﴾ فاعلًا لها، ويتعلَّقُ بها الجارُّ والمجرورُ ﴿لِنَبِيٍّ﴾[1].

وَجْـهُ إدخـالِ (كـان) على لفظِ (يكون)

"كيفَ حسُنَ إدخالُ لفظةِ ﴿كَانَ﴾ على لفظة ﴿يَكُونَ﴾ في هذهِ الآية؟ والجواب: قولُهُ: ﴿مَا كَانَ﴾ معناه النَّفيُ والتَّنزيهُ، أي: ما يجبُ وما ينبغي أن يكونَ له المعنى المذكورُ، ونظيره قولُه: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ﴾ [مريم: 35]"[2].

اجتماعُ الخبريَّةِ والإنشاءِ في تركيبٍ واحدٍ:

خـبرٌ مُـشـرَبٌ بالإنشاءِ

صيغةُ ﴿مَا كَانَ﴾ قد تأتي خبريَّةً كما هو في هذه الآيةِ، وفيها رائحةُ الإنشاءِ، فمعنى ﴿مَا كَانَ﴾: لا يصلحُ؛ لأنَّ هذا الكلامَ جاء تمهيدًا للعتابِ؛ فتعيَّنَ أن يكونَ مرادًا منه ما لا يصْلُح من حيثُ الرَّأيُ والسّياسةُ، وقد تأتي إنشائيَّةً صريحةً بمعنى النَّهي، كما في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ﴾ [الأحزاب: 53][3].

تعيينُ مقصودِ الخطابِ:

يدخلُ في خطابِ النَّبيِّ خطابُ أصحابه

الخطاب في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وإن كان ظاهرُه للنَّبيِّ ﷺ إلا أنَّه موجَّهٌ للمسلمين

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/169.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/164.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/74.

الذين أشاروا عليه بالفداء؛ لأنَّهُ ما فعل رسولُ الله إلّا ما أمرهُ الله بهِ من مشاورةِ أصحابه، ويكون المعنى العامُّ لها: نفيَ اتِّخاذ الأسرى عن استحقاق نبيٍّ لذلك الكونِ[1].

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

النَّبيُّ هو القُدوةُ في التَّكاليفِ العامَّةِ والفرديَّةِ

الغرضُ البيانيُّ من تقديمِ قولِه: ﴿لِنَبِيٍّ﴾ وقوله: ﴿لَهُۥٓ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ هو العنايةُ بالمخاطَبِ ورعايته بهذهِ الآيةِ من ناحيةٍ، والعنايةُ بتنفيذِ الأحكامِ المرادةِ من هذا النَّفي من ناحيةٍ أخرى، فما نُفيَ عن النَّبيِّ ﷺ من شأنِه أن يُنفى عن أتباعهِ ضرورةً، وتنزيلُ الأتباعِ منزلتَهم الحقيقيَّةَ في اتِّباع النَّبيِّ ﷺ أمرًا ولفظًا.

غرضُ تنكيرِ كلمة: ﴿لِنَبِيٍّ﴾:

الإشارةُ إلى قِدَمِ حُكمِ الأسرِ

نُكِّرت كلمةُ (نبيّ) للتَّعميم، إشارةً إلى أنَّ هذا الحكم سابقٌ وقديمٌ في حروب الأنبياء[2]، ولا يختصُّ بنبيِّ هذه الأمَّةِ وحدَها.

توجيهُ القِراءاتِ القرآنيَّةِ:

قرأ أبو عمرٍو وأبو جعفر ويعقوبُ بالتّاء الفوقيَّة: ﴿تَكُونَ﴾، وقرأ الباقون بالياء التَّحتيَّة ﴿يَكُونَ﴾[3]، فحجَّةُ من أنَّثَ الفعلَ ﴿تَكُونَ﴾ مراعاةً للَّفظ ﴿أَسۡرَىٰ﴾ على تأنيثِها المجازيِّ، وحجَّةُ من ذكَّرَ الفعل ﴿يَكُونَ﴾ تقدُّمُ الفعلِ، وتذكيرُ أسرى، وللفصل بين الفعل والفاعل بتقدُّمِ شبه الجملةِ الجارِّ والمجرورِ[4].

معنى اللّامِ وفائدتُها:

أفادتِ اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ معنى الاستحقاقِ، أي: ما كان لنبيٍّ أن يتَّخذ أسرى على وجْه الاستحقاقِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/74.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/74.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/277.
(4) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 313.

توجيهُ القِراءاتِ القرآنيَّة:

التَّكاملُ الدّلاليُّ بين القراءاتِ المتواترةِ مَهْيَع التَّمام

قرأ أبو جعفرٍ بضمِّ همزةِ ﴿أَسْرَىٰ﴾ وفتحِ السّينِ وألفٍ بعدَها: ﴿أُسَرَىٰ﴾ وهي جمع أسيرٍ، وقرأ الباقون بإسكان السّين من غيرِ ألفٍ: ﴿أَسْرَىٰ﴾ وهي جمعُ أسيرٍ أيضًا[1]، فحجَّةُ من قرأ: ﴿أُسَرَىٰ﴾ أنَّها جمعُ أسيرٍ، مثل: كسالى، وحجَّةُ من قرأ: ﴿أَسْرَىٰ﴾ أنَّها جمعٌ مثل مرضى، ويرى ابنُ خالويه أنَّ الحجَّةَ لمن أثبتها، أي: الألف ﴿أُسَرَىٰ﴾: أنَّه أرادَ: جمعَ الجمعِ، والحجَّةُ لمن طرحها أنَّه أراد جمعَ أسيرٍ[2]، وهذا الرَّأي أليقُ من التَّفريقِ بين هذيْنِ الجمعيْنِ تفريقًا في المعنى المرادِ من كلٍّ منهما دونَ أن يستندَ إلى دليلٍ راجحٍ.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّةِ:

تصويرُ تمكُّنِ النَّبيِّ من الأرضِ دليلُ طلبِ ذلك

الإثْخانُ: الشِّدَّةُ والغِلْظَةُ في الأذَى، يُقالُ: أثْخَنَتْهُ الجراحَةُ، وأثْخَنَهُ المَرَضُ؛ إذا ثَقُلَ عليه، وقد شاعَ إطْلاقُهُ على شِدَّةِ الجراحَةِ على الجَريحِ، وقد حَمَلَهُ بَعْضُ المُفَسِّرينَ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ على معنى الشِّدَّةِ والقوَّةِ، فالمعنى: حَتَّى يَتَمَكَّنَ في الأرْضِ، أيْ: يَتَمَكَّنَ سُلْطانُهُ وأمْرُهُ، وقد عبَّرَ بالإثخانِ لا بالتَّمكُّن لما في اللفظِ من معنًى حسّيٍّ بليغ، فالإثخانُ يُصوِّرُ تمكُّنَ النَّبيِّ وسلطانَهُ في الأرضِ، وفيها استعارةٌ بليغةٌ، حيثُ شبَّهَ الأرضَ بالشَّيءِ الذي يُثخن، على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ.

بلاغةُ الكنايةِ:

تقريرُ المعاني المعنويَّةِ بالألفاظِ الحسيَّةِ أقوى أثرًا ودلالةً

معنى قولِه: ﴿حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾: حتَّى يقوى ويشتدَّ ويبالغ ويقهر؛ لأنَّ الملكَ والدولة إنَّما تشتدُّ بالقتل؛ لأنَّ كثرتَهُ توجب قوَّةَ الرُّعب وشدَّةَ المهابة، وذلك يمنعُ من الجراءةِ ومن الإقدام على ما لا ينبغي، فلا مانعَ من حملِها على الكنايةِ عن إدخالِ الرُّعب على قلوبِ الكافرين المناوئين لدينِ الحقِّ، والتَّمكُّنِ في الأرضِ.

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/277.

(2) ابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 173.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

عـتـابُ المـقـرَّبـينَ رِفعةٌ وإهمالُهم معرَّةٌ

قولهُ تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ مسوقٌ للعتابِ[1]، فالجملةُ تعليلٌ للنَّهي المستفادِ من الجملة السّابقةِ، بتقدير سؤالٍ: لِمَ كان العتابُ على اتِّخاذ الأسرى؟ والخطابُ هنا أيضًا للفريقِ الَّذين أشاروا بأخذِ الفداءِ[2]، عند من يرى أنَّ النَّبيَّ ﷺ غيرُ مشمولٍ بالعتاب، وتقدَّمَ في معاني المفرداتِ أنَّ عرضَ الدُّنيا هو متاعُها الزّائلُ من مالٍ وغيرِه.

براعةُ الخبرِ في تعيينِ الأغراض:

إنـكـارُ أن يطلبَ المـؤمـنُ الـدُّنـيـا بأعمالِ الآخرةِ

يرى ابنُ عاشورٍ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ قد يكون مستعملًا في معنى الاستفهامِ الإنكاريِّ، "والمعنى: لَعَلَّكُم تُحِبّونَ عَرَضَ الدُّنْيا، فإنَّ اللهَ يُحِبُّ لَكُمُ الثَّوابَ وقوَّةَ الدّينِ؛ لأنَّهُ لَوْ كانَ المَنْظورُ إليه هو النَّفْعَ الدُّنْيَويَّ؛ لَكانَ حِفْظُ أنْفُسِ النّاسِ مُقَدَّمًا على إسعافهم بالمالِ، فلَمّا وجَبَ عليهم بَذْلُ نُفوسِهم في الجهادِ، فالمعنى: يوشِكُ أنْ تَكونَ حالُكُم كَحالِ مَنْ لا يُحِبُّ إلّا عَرَضَ الدُّنْيا، تَحْذيرًا لهم مِنَ التَّوَغُّلِ في إيثارِ الحُظوظِ العاجِلَةِ"[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الفعلِ المضارِع:

بـيـانُ خـطـورةِ إرادةِ المخاطَبين إن اسـتـمـرّوا عليها، ورحمةِ اللهِ بما يُريدُه لعبادِه

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ صيغة المضارعِ في قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ﴾ وقوله: ﴿يُرِيدُ﴾ لاستحضارِ الإرادتين، وبيانِ خطورةِ إرادةِ المخاطَبين إنِ استمرّوا عليها، وتجدُّدِ حالها فيهم، واشتمالِها على معنى الإنكارِ المستمرِّ، ما دامتِ الإرادةُ متجدِّدةً، وبيانِ رحمةِ اللهِ تعالى بإرادتهِ المستمرَّةِ في رعايةِ المؤمنين، فهو يُريدُ لهم الدّارَ الآخرةَ، بصرفِ إرادتهم عن عرضِ الحياةِ الدُّنيا.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/113.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/75.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/76 - 77.

سرُّ التَّعبيرِ بعرضِ الدُّنيا عن المالِ:

المقصودُ بقولِه: ﴿عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ المالُ، وإنَّما سُمّيَ عَرَضًا؛ لِأنَّ الانْتِفاعَ به قَليلُ اللُّبْثِ، فأشْبَهَ الشَّيْءَ العارِضَ؛ إذِ العُروضُ مُرورُ الشَّيْءِ وعَدَمُ مُكْثِه؛ لِأنَّهُ يَعْرِضُ لِلْماشينَ بدونِ تَهَيُّؤٍ، والمُرادُ عَرَضُ الدُّنْيا المَحْضُ، وهو أخْذُ المالِ لِمُجَرَّدِ التَّمَتُّعِ به، وإنَّما ذُكِرَ معَ الدُّنْيا المُضافُ، ولَم يُحْذَفْ: لِأنَّ في ذِكْرِه إشْعارًا بعُروضِه وسُرْعَةِ زَوالِه[1].

المـــالُ عـــارضٌ سريعُ الـزَّوالِ لا يلبثُ كثيرًا

بلاغةُ حذفِ الموصوفِ:

ذكرتِ الآيةُ ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ صفةَ الدُّنيا والآخرة، ولم تذكرِ الموصوفَ، وهو (الحياة)، وذلك لبيانِ أنَّ إرادتَهم كانتْ متَّجهةً للعاجلةِ، وللإشارةِ إلى أنَّهم كانوا متعجِّلين في قرارِهم بشأنِ الأسرى، كما أنَّ ذكرَ ﴿عَرَضَ﴾ قد أغنى عن ذكرِ الموصوفِ، وحُذِفَ الموصوفُ فيما يتعلَّق بالآخرة؛ للمشاكلةِ، فلمّا اتَّجهتِ الأنظارُ إلى الدُّنيا تعجُّلًا؛ نبَّههم على ضرورةِ التَّعجُّلِ في إرادةِ الآخرةِ.

أثـرُ المشاكلةِ في توجيهِ الأنْظارِ لما يَجبُ أنْ تتعجَّلَ فيهِ

بلاغةُ حذفِ المضافِ:

الإرادةُ في قولِه تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ بمعنى: المحبَّةِ، أي: تُحبّون منافعَ الدُّنيا، واللّه يحبُّ ثوابَ الآخرة أو عملَها، فحُذف المُضافُ، وأُقيمَ المُضافُ إليه مكانَهُ[2] إيجازًا لدلالةِ المقام عليه، وليكونَ الكلامُ أشملَ وأعمَّ، فيدخلُ فيه كلُّ ما يصلحُ أن يكونَ فيه من المنافعِ والمصالحِ ومظانِّ الخيرِ ونحوِه ممّا يحرصُ عليه النّاس.

مسلكُ الإيجازِ أعـــمُّ دلالـــةً وأشملُ معنًى

نكتةُ المشاكلةِ في أسلوبِ المقابلةِ:

عبَّرَ بإرادتِه ﷻ مقابلَ إرادتِهم في قولِه تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ على سبيلِ المشاكلةِ[3]، وفي الجملةِ استعمالٌ

إقـناعُ المعاتَبين بدقائقِ الأسلوبِ دليـلُ الارتـقـاءِ بلمحِ الإشاراتِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/76.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 817.

(3) المشاكلة: هي ذكر الشّيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته، تحقيقًا أو تقديرًا. ينظر: القزوينيّ، تلخيص المفتاح، ص: 178.

لأسلوبِ المقابلةِ بين ما يريدونَهُ، وبين ما يريدُهُ اللّه لهم؛ لبيانِ الفرقِ بين الإرادتين، ولما تُفيدُه المقابلةُ من مزيدِ العتابِ، وهو يدلُّ على أنَّ المخاطَبين المعاتبين يلمحونَ دقائقَ النَّظمِ، ويأخذونَ رقائقَ العتابِ.

نوعا الواوِ ومعناهما:

الـــــواوُ بـين العطْفِ والحالِ

الواوُ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ إمّا أن تكونَ عاطفةً للجملةِ على السّابقةِ، وإمّا أن تكونَ للحاليَّةِ على معنى: تريدون متاعَ الدُّنيا، والحالُ أنَّ اللّه يريدُ لكم ثوابَ الآخرة.

غرضُ تقديمِ المسندِ إليهِ على المسندِ الفعليِّ:

تـوكـيـدُ معنى إرادةِ الـلـهِ للمؤمنينَ الدّارَ الآخرةَ

قُدِّمَ المسندُ إليهِ على المسندِ الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ يُفيدُ تقويةَ الحكمِ وتوكيدَه على قولٍ، وقد يُفيدُ التَّخصيصَ بالقرائنِ على قولٍ آخرَ، ولا قرينةَ صارفةً هنا إلى التَّخصيص؛ فاللّه تعالى يريدُ لهم ثوابَ الآخرةِ، والنَّبيُّ ﷺ كذلك.

بلاغةُ التَّذييلِ:

اجـتـمـاعُ وصفِ العزَّةِ والحكمةِ دليلٌ إرادتِهما للأمَّةِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ معطوفٌ على جملةِ ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ عطفًا يؤذنُ بأنَّ لهذين الوصفيْن أثرًا في أنَّهُ يريدُ الآخرةَ، فيكونُ كالتَّعليل، وهو يفيدُ أنَّ حظَّ الآخرةِ هو الحظُّ الحقُّ ولذلك يريده العزيزُ الحكيمُ[1]، واجتماعُ الوصفين ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ له دلالةٌ سياقيَّةٌ؛ فصفةُ عزيزٍ تؤذنُ بأنَّهُ يغلِّبُ أولياءَهُ على أعدائه، وصفةُ حكيمٍ تعني: أنَّه يعلمُ ما يليقُ بكلِّ حالٍ، ويخصِّصه بها، كما أمرَ بالإثخانِ، ونهى عن الفداءِ حين كانت الشَّوكةُ للمسلمين، وخيَّرَ بينه وبين المنِّ بقوله: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ [محمد ﷺ: 4] لمّا تحوَّلت الحالُ، وصارت الغلبةُ للمؤمنين[2]، واجتماعُ هذين الوصفين دليلُ إرادتِهما للأمَّةِ، فيجبُ أن يسعى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/77.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/113.

المؤمنونَ إلى الامتثالِ بخلق العزَّة والحكمة، وأن يكونَ لهما حضورٌ راسخٌ في سلوك الأمَّةِ الحضاريِّ.

فائدةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

إظْـهـارُ قـوَّةِ إيمانِ المخاطَبين وتـقـواهـم لـربِّ العالمين

قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ الكلامَ السّابقَ يؤذنُ بأنَّ مفاداةَ الأسرى أمرٌ مرهوبٌ تُخشى عواقبهُ، فيستثيرُ سؤالًا في نفوسِهم عمّا يترقَّبُ من ذلك لو حدث[1]، فيأتي الجوابُ بما أفادتْهُ الآيةُ، وفائدةُ الاستئنافِ البيانيِّ أنَّه يُظهر مدى قوَّةِ إيمانِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ وخوفِهم من عذابِ اللهِ تعالى.

بلاغةُ استعمالِ ﴿لَّوْلَا﴾ في بيانِ فنِّ المدْح بما يُشبهُ الذَّمَّ:

غـايـةُ المـدح في دفـعِ الـقـدحِ واسـتـحـالـةِ التَّعذيب

﴿لَّوْلَا﴾ في قولِه: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ حرفُ امتناعٍ لوجودٍ متضمِّنةٌ معنى الشَّرطِ، ومعناه: لولا قضاءٌ من اللهِ سبق لكم - أهلَ بدرٍ - في اللَّوح المحفوظ، بأنَّ اللهَ مُحِلٌّ لكم الغنيمةَ، وأنَّ اللهَ قضى فيما قضى أنَّه لا يُضِلُّ قومًا بعد إذ هداهم حتَّى يبيِّنَ لهم ما يتَّقون[2]، وأنَّه قضى ألّا يمسَّكم عذابٌ منه تعالى أي: عدمُ مسِّ العذابِ بسببِ سبقِ قضاءِ اللهِ، فشرطُ العذاب انتفاءُ قضاءِ اللهِ، والانتفاءُ مستحيلٌ، فالعذابُ مثلُهُ، وهذا في غاية المَدْح، ودفعِ القدْح عن أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ففيه فنُّ المدحِ بما يُشبهُ الذَّمَّ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكتابِ:

الإشـــارةُ إلى الإعجازِ الغيبيِّ

ذهبَ المفسِّرون إلى تفسيرِ الكتابِ في قولِه تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بقضاءِ اللهِ تعالى وجاءَ التَّعبيرُ بالكتابِ دون القضاءِ في هذا السّياقِ لبيانِ أنَّه قضاءٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/77.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 5/3897 - 3900.

ثابتٌ مكتوبٌ قبلَ وقوعِ الحدَثِ، ففيه إعجازٌ غيبيٌّ في الإخبارِ عن قضاءِ اللّه لما سيحدُث، هذا ما يقتضيه ظاهرُ النَّظمِ الكريم، أو أن يُحمل على الكنايةِ عن رحمةِ اللّه بعبادِه، فيما يقتضيه قضاؤهُ في مثل هذه الأحوالِ، وحملُ الكلامِ على ظاهرِ النَّظمِ أسعدُ مسلكًا.

غرضُ تنكيرِ الكتابِ:

اجتماعُ غرضِ النَّوعِ والتَّعظيمِ للحالِ والمآلِ

لفظُ ﴿كِتَٰبٌ﴾ في قوله: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ مبتدأٌ نكرةٌ سوَّغَ مجيئَهُ نكرةً وقوعُهُ بعدَ ﴿لَّوۡلَا﴾، وخبرهُ محذوفٌ، تقديرهُ: موجودٌ أو كائنٌ، وتنكيرُهُ إمّا أن يكون للتَّنويعِ والإبهام[1]، وإمّا للتَّعظيمِ على اعتبار أنَّ هذا الكتابَ مسندٌ إلى اللّه، والمعنيان متآيلانِ، فنوعُ الكتاب خاصٌّ بما هو غيبيٌّ، وهو عظيمٌ في ذاتِه وفي مصدرِه وفي مآلِه.

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها:

اكتسابُ معنى التَّشريفِ والتَّعظيمِ للكتابِ

أفادت ﴿مِّنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ معنى الابتداءِ، أي: كتابٌ وقضاءٌ نازلٌ من اللّهِ تعالى وقد أعطى هذا الحرفُ زيادةَ تشريفٍ وتعظيمٍ للكتابِ، في كونهِ من عندِ اللّهِ تعالى.

بلاغةُ استعمالِ القيدِ:

عظمةُ الأحكامِ المتعلِّقةِ بالأمَّةِ وشؤونِها الحضاريَّةِ والدَّعويَّةِ

ذُكِرَ قيدُ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وقُدِّمَ في قولِه: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾، فلم يقل: (لولا كتابٌ سبق من اللّه)، ولم يقل: (لولا كتابٌ سبقَ لمسَّكم)، ونكتةُ ذلك بيانُ عظمةِ القضاءِ المتعلِّق بهذا الحدثِ، وأنَّه قضاءٌ عظيمٌ، ارتبطَ بحدثٍ عظيمٍ اختصَّ بالأمَّةِ وشؤونِها، فقضاءُ اللّه لم يتوقَّف على خصوصيَّةِ هذا الحدثِ، بل تعدّاهُ في مسيرةِ الأمَّةِ في علاقتِها مع الآخر، وفي الدَّعوة إلى دينِ اللّه تعالى بما يُعطي التَّصوُّرَ الصَّحيحَ قوَّةً ورحمةً في العلاقةِ مع الآخرِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/77.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّةِ:

بيانُ تدارُكِ رحمةِ اللهِ بعبادِه

اختيرتْ مفردةُ ﴿سَبَقَ﴾ دونَ مرادِفاتِها من مثل: (مضى)؛ للفتِ الأنظارِ إلى أنَّ هذا القضاءَ مقصودٌ، ولبيان تداركِ رحمةِ اللهِ بهم، فكأنَّ الكتابَ مسابقٌ كتابًا آخر، وهو الذي سبقَ، ولو لم يسبقْ لوقع المكروهُ، ففيه زيادةُ امتنانٍ على عبادِ اللهِ تعالى وفيه استعارةٌ بتشبيه الكتابِ بسابقٍ، على سبيل الاستعارةِ المكنيَّة، بحذفِ المشبَّه به، وذكر لازمٍ من لوازمه، وهو لفظُ ﴿سَبَقَ﴾.

فنُّ التَّعليلِ:

سبقُ القضاءِ علَّةُ النَّجاةِ

في قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فنٌّ جليلٌ من فنون البلاغةِ يُسمَّى (فنَّ التَّعليل) وهو أن يريدَ المتكلِّمُ ذكرَ حكمٍ واقعٍ أو متوقَّعٍ، فيقدِّمُ قبل ذكرِه علَّةَ وقوعِه؛ لكونِ رتبةِ العلَّةِ التَّقدُّمَ على المعلولِ، وسبقُ الكتابِ من اللهِ هو العلَّةُ في النَّجاةِ من العذاب[1]، وهذا فنٌّ بديعيٌّ مُشْرَبٌ بأساليبِ الإقناعِ الخطابيِّ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿لَمَسَّكُمْ﴾:

العذابُ المدفوعُ بالكلّيّةِ هو أدنى الدَّرجاتِ

أفادتِ اللّامُ الدّاخلةُ على جوابِ الشَّرطِ ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ التَّوكيدَ، واختيرتْ مفردةُ المسِّ دون (أصابكم) لبيانِ أنَّ المدفوعَ وقوعُهُ، هو أدنى درجاتِ الفعلِ، وهو المسُّ، فلمّا نفى المسَّ؛ نفى ما هو أعلى منه بخلافِ العكس، وهذا كذلك كاشفٌ عن رحمةِ اللهِ وامتنانِه بعبادِه، ورعاية حال أولئك المؤمنين، فإنَّ المدفوعَ عنهم هو مسٌّ لا أعظمَ منه، فالمعنى: أنَّه لو أرادَ أن يوقِعَ عليهم عذابًا؛ لكانَ مجرَّدَ مسٍّ، فكيف وقد دُفِع بالكلّيَّةِ.

وإضافةُ المسِّ للمفعولِ فيهِ زيادةُ امتنانٍ للمخاطَبين بغرضِ استشعارِ رحمةِ اللهِ بهم.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/170.

نكتةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

الـجـمـعُ بين معنى التَّعليلِ والظَّرفيَّةِ

أفادَ حرفُ الظَّرفيَّةِ في قولِه: ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ معنى التَّعليلِ، وفائدةُ استعمال هذا الحرفِ دونَ حرفِ التَّعليلِ، فلم يقلْ: (لمسَّكم بسببِ ما أخذْتم)؛ تصويرُ حجمِ ما وقعوا فيه من العملِ، فأفاد معنَيَيْنِ اثنين، الأوَّل: الظَّرفيَّةَ أصالةً، والآخر: التَّعليلَ تبَعًا.

دلالةُ إيثارِ ذكرِ ﴿فِيمَآ﴾ على الاسمِ الموصولِ الظّاهرِ:

استعملَ السّياقُ ﴿فِيمَآ﴾ الموصولةَ دونَ الاسمِ الظّاهر، فلم يقل: (في الذي أخذتم) للإبهامِ والإجمالِ في عدمِ إرادةِ التَّعيين، لاسيَّما أنَّ الأخْذَ تبايَنَت درجاتُه بين الآخذين، فكانَ استعمالُ ﴿فِيمَآ﴾ أدقَّ مسلكًا في تحقيقِ المرادِ.

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة:

وتقديمُ شبهِ الجملةِ ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ على الفاعلِ ﴿عَذَابٌ﴾ للتَّنبيهِ على علَّة مسِّ العذابِ، فهي من بابِ تقديمِ السَّببِ على النَّتيجةِ.

فائدةُ تنكيرِ لفظِ ﴿عَذَابٌ﴾:

عمومُ العذابِ وعظمتُهُ

نُكِّر لفظُ ﴿عَذَابٌ﴾ لإفادةِ التَّعميم؛ ليشملَ عذابي الدُّنيا والآخرة، ولا مانع في ذلك من حمْلِه على إفادةِ التَّعظيم أيضًا، فإنَّ عذابَ اللهِ عظيمٌ، ووصفهُ بقولِه: ﴿عَظِيمٌ﴾ قرينةٌ على ذلك.

دلالةُ الفاءِ بين الفصيحةِ والتَّفريعِ:

ما بعد الفاءِ مرتبطٌ بما قبلَها تسبُّبًا ونتيجةً تشريعيَّةً

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾ إمّا أن تكونَ فصيحةً، فقد أفادتِ الفاءُ معنى التَّسبيب، والسَّببُ محذوفٌ، والمعنى: قد أبحْتُ لكم الغنائمَ، فكلوا ممّا غنمتم[1]، وإمّا أن تكونَ تفريعيَّةً آذنت بتَفْريعِ هذا الكَلامِ على ما قَبْلَهُ، وفي هذا التَّفْريعِ وجْهان:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/225.

أحَدُهُما: الَّذي جَرَى عليه كَلامُ المُفَسِّرينَ أنَّهُ تَفْريعٌ على قَوْلِه: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾، أيْ: لَوْلا ما سَبَقَ مِن حِلِّ الغَنائِم لَكُمْ؛ لَمَسَّكُم عَذابٌ عَظيمٌ، وإذْ قد سَبَقَ الحِلُّ، فلا تَبِعَةَ عَلَيْكُم في الانْتِفاعِ بمالِ الفِداءِ.

والآخر: أنَّ التَّفْريعَ ناشئٌ على التَّحْذيرِ مِنَ العَوْدِ إلى مِثْلِ ذلك في المُسْتَقْبَلِ، وأنَّ المعنى: فاكْتَفوا بما تَغْنَمونَهُ، ولا تُفادوا الأسْرَى إلى أنْ تُثْخِنوا في الأرْضِ، وهذا هو المُناسِبُ لإطْلاقِ اسْمِ الغَنيمَةِ هُنا إذْ لا يَنْبَغي صَرْفُهُ عَنْ مَعْناهُ الشَّرْعيِّ.

ولَمّا تَضَمَّنَ قَوْلُهُ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ امْتِنانًا عليهم بأنَّهُ صَرَفَ عنهم بَأْسَ العَدوِّ، فرَّعَ على الامْتِنانِ الإذْنَ لهم بأنْ يَنْتَفِعوا بمالِ الفِداءِ في مَصالِحِهِم، ويَتَوَسَّعوا به في نَفَقاتِهِم، دونَ نَكَدٍ ولا غُصَّةٍ، فإنَّهُمُ اسْتَغْنَوْا به مَعَ الأمْنِ مِن ضُرِّ العَدوِّ بفَضْلِ اللّه، فتِلْكَ نِعْمَةٌ لَم يَشُبْها أذًى[1].

غرضُ الأمرِ وفائدتُه:

تـوكـيـدُ حـلِّ الـغـنـائـمِ والامـتـنـانِ على ذلك

الأمرُ في قولِه تعالى: ﴿فَكُلُوا۟﴾ ليس منشأً لإباحةِ الغنائمِ؛ إذ قد سبقَ تحليلُها قبلَ يومِ بدرٍ، ولكنَّهُ أمرٌ يفيدُ التَّوكيدَ واندراجَ مالِ الفداءِ في عمومِ ما غنمتُم؛ إذ كان قد وقعَ العتابُ في الميْلِ للفداءِ، ثمَّ أقرَّهُ الرَّسولُ [2]ﷺ ووجهُ التَّوكيدِ دفعُ مَظِنَّةِ تحريمِ الانتفاعِ من الغنائمِ، وهو يُفيدُ الامتنانَ أيضًا[3].

فائدةُ التَّعبيرِ بالأكلِ عن الانتفاعِ:

دفعُ أدنى تحرُّزٍ عـن الانـتـفـاعِ بالغنائمِ

عُبِّرَ عنِ الانتفاعِ الهنيءِ بالأكلِ في قولِه تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ لأنَّ الأكلَ أقوى كيفيّاتِ الانتفاعِ بالشَّيءِ، فإنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/78 - 79.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/354.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/79.

الآكلَ ينعمُ بلذاذةِ المأكولِ، وبدفعِ ألمِ الجوعِ عن نفسِه، ودفعُ الألمِ لذاذةٌ، ويكسبهُ الأكلُ قوَّةً وصحَّةً، والصحَّةُ مع القوَّةِ لذاذةٌ أيضًا[1]، ولأنَّ الأكلَ يُضارعُ الانتفاعَ في كثرةِ الاستعمالِ، ويدلُّ على كمالِ الانتفاعِ بالشَّيءِ المأكولِ، ولمّا كان السّياقُ في توكيدِ إباحةِ الانتفاعِ بالغنائمِ، عبَّرَ بالأكلِ ليدلَّ على هناءةِ الآكلِ دونَ أدنى تحرُّزٍ.

معنى (مِن) ودلالتُها:

تقسيمُ الغنائمِ يرجعُ للإمامِ بما تقتضيهِ المصلحةُ الشَّرعيَّةُ

معنى (من) في قولِه: ﴿مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ التَّبعيضُ، فإنَّ المخاطَبين لم يَمتلكوا جميعَ الغنائمِ، بل حازوا بعضَها، و(ما) موصولة، وجملتها ﴿غَنِمْتُمْ﴾ وشبهُ الجملةِ من الجارِّ والمجرورِ ﴿مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿فَكُلُواْ﴾[2]، وفائدةُ التَّعبيرِ بما الموصوليَّة، بيانُ عمومِ الانتفاعِ، وتركُ التَّقسيمِ لما تقتضيه المصلحةُ الشَّرعيَّةُ.

فائدةُ وصفِ الحلالِ بالطَّيِّب:

دفعُ الشُّبُهاتِ وتأكيدُ التَّرغيبِ بهِ

قولُهُ تعالى: ﴿حَلَٰلًا﴾ منصوبٌ على الحالِ من المغنومِ، أو صفةٌ للمصدرِ المحذوفِ، والتَّقديرُ: أكلًا حلالًا[3]، و﴿طَيِّبًا﴾ صفةٌ له، والحلالُ لا يكونُ إلّا طيِّبًا، ففائدةُ وصفِه بالطَّيِّبِ تأكيدُ التَّرغيبِ[4]، ودفعُ توهُّمِ إباحتِهِ مع وجودِ شيءٍ من الحرجِ، فكان الوصفُ دافعًا لأيِّ شبهةٍ أو وسوسةٍ في غيرِ محلِّها.

دلالةُ العطفِ بين الجمل:

الشَّريعةُ ضبطتْ أفعالَ المكلَّفين باختلافِ مراتبِهم

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ على الأمرِ بالأكلِ في قولِه: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾، لضبطِ الانتفاعِ بالغنائمِ بما فيهِ طاعةُ اللهِ، فإنَّ المؤمنينَ متفاوتونَ بالانتفاعِ ما بين متساهلٍ ومتشدِّدٍ، فكما أنَّ التَّعبيرَ بالأكلِ، ووصفَ الحلالِ بالطَّيِّبِ يضبط المتشدِّدَ، فإنَّ الأمرَ بالتَّقوى إرشادٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/79.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/226.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/226.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/114.

للمتساهلِ في أكلِ الغنائم، فكان السّياقُ جامعًا بين الطَّرفين، ليُحقِّقَ المقصودَ بما لا مزيدَ عليه، كما أنَّ التَّقوى تنفعُ الطَّرفين؛ لأنَّ التَّقوى هي شكرُ اللّه على ما أنعمَ من دفع العذابِ عنهم[1].

بلاغةُ التَّذييلِ:

الأمـرُ بالتَّقوى سياجُ المستقبلِ، والمـغـفـرةُ والرَّحمةُ بلسمُ الماضي

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إمّا أن يُحملَ على الاستئنافِ البيانيِّ، على تقديرِ سؤال: لِمَ كان الأمرُ بالتَّقوى؟ فالجملةُ تعليليَّةٌ للأمرِ بالتَّقوى[2]، وإمّا أن يُحملَ على تركِ العطف بينها وبين الجملةِ الَّتي سبقتها لاختلاف الخبريَّة والإنشائيَّة، ويعبِّرون عنه بكمالِ الانقطاع أو الانفصال لغايةٍ، وقد بيَّنَ الشَّيخ عبدُ القاهرِ الجرجاني، وهو يتحدَّثُ عن محاسن (إنَّ) أنَّها تتولَّى ربطَ الجملةِ بما قبلَها ربطًا يُحتاجُ فيهِ أنَّك إذا حذفتها؛ قد تحتاجُ إلى الفاءِ في أكثر الأوقاتِ لتسدَّ محلَّها[3]، فكأنَّ الجملةَ السّابقة حالٌ حُذِفَ (إنَّ) منها، يكونُ تقديرُها: واتَّقوا اللّه، فإنَّ اللّه غفورٌ رحيم، فأغنى وجودُها عن فاءِ التَّفريع.

وتقديرُ الكلام: واعلموا أنَّ اللّه غفورٌ على ما أقدمتُم عليه في الماضي من الزلَّةِ، رحيمٌ لما أتيتم من الجرم والمعصيَةِ، فقولهُ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ إشارةٌ إلى المستقبلِ، وقوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إشارةٌ إلى الحالةِ الماضيةِ[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المسّ والإصابة:

يدلُّ المسُّ على جسِّ الشَّيء باليد[5]، فيكونُ الإدراكُ معهُ بحاسَّةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/79.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/79.
(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 408 - 411.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/167.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسس).

اللَّمسِ، ويكنَّى به أحيانًا عن النِّكاحِ، والجنونِ والأذى[1]، واستُعملت هذه الكلمةُ في حوارِ إبراهيمَ عليه السلام مع أبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥﴾ [مريم: 45] وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٤٩﴾ [الأنعام: 49] وقوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾ [هود: 48].

المسُّ: هو مطلقُ المباشرةِ والملامسةِ، والإصابةُ: بلوغُ المقصودِ على وجهٍ بليغٍ

وأمّا الإصابةُ؛ فأصلُ جذرِها (صَوَبَ) وهو يدلُّ على نزولِ شيءٍ واستقراره[2]، والصوابُ عند الرّاغبِ الأصفهانيِّ يُقال على وجهيْن: أحدهما: باعتبارِ الشَّيءِ في نفسِه، فيقالُ: هذا صوابٌ؛ إذا كان في نفسِه محمودًا بحسبِ مقتضى الشَّرعِ والعقل، والثاني: يُقالُ باعتبار القاصدِ؛ إذا أدرك المقصودَ بحسبِ ما يقصدهُ، فيقال: أصابَ كذا؛ إذا وجدَ ما طلب[3].

وقد أُسنِدَ فعلُ الإصابةِ في القرآن الكريم إلى العذابِ والمصائبِ في مواضعَ عديدةٍ، منها: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: 165]، فدلَّ الاستعمالُ اللُّغويُّ والقرآنيُّ لهاتيْن اللَّفظتيْن على اشتراكهما في المباشرةِ والملامسةِ لمن وقعَ فعلُهما عليه، مع تمكُّنِ (الإصابة) وتغلغلِها على وجهٍ أبلغَ مِنَ (المسّ)؛ لذا فإنَّ في استعمالِ إبراهيمَ عليه السلام للمسِّ في حوارهِ مع أبيهِ نوعًا من المؤانسةِ والتَّطميعِ والتَّرغيب في دعوة أبيهِ لدينهِ، لا يسدُّ مسدَّها أن يقولَ له: (يصيبك عذابٌ من الرحمن)، وكذلك في سورةِ الأنعام جاء قوله: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٤٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٤٩﴾ [الأنعام: 48 -

(1) الرّاغب، المفردات: (مسس).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوب).
(3) الرّاغب، المفردات: (صوب).

49] ناسب ذكرَ ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ وتقديمَها على ﴿وَمُنذِرِينَۖ﴾، وتقديمَ الإيمان والصَّلاحِ، ونفيَ الخوفِ والحزنِ عن المؤمنين أن يُعبِّرَ عن وقوعِ العذابِ بالمسِّ دونَ غيرِه، وكذلك نجدُ مثلَ هذا الإيناسِ والتَّطميع في سورة هود: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾ [هود: 48] فالسَّلامُ والبركاتُ والإمتاعُ نِعَمٌ عظيمةٌ من الله إزاءَ لفظِ المسِّ المسندِ للعذابِ.

بينما نجدُ في استقصاءِ مواقعِ إصابة العذابِ في القرآن الكريم أنَّ هذا العذابَ قد أحاط بأصحابِه من ناحيةٍ، وروعي فيه وقوعهُ وفقَ الصَّوابِ على مقتضى العقلِ والشَّرعِ من ناحيةٍ أخرى، والله أعلمُ وأحكمُ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»